ازاء بؤس الحاضر ينسرب الخيال الى الماضي ، ويصبح الرحيل الى الماضي ضرورة ، عملية تعال ارادية ، فاجترار الحلم بكل اشكاله يلطف من ظلم الحاضر ، فالاول هو المعنى والثاني هو اللامعنى ، الاول يعني الشباب والارض والحياة والزوج والخصب ، في حين يعني الثاني الكهولة والموت والعقم والترمل ، فكل ما هو جميل ، وكل مـا يحقق ذات الانسان وحريته يكمن في الماضي ، لذلك تصبح عملية سحب الماضي على الحاضر ضرورية ، انها تشبه حال البائس الذي يتسامى على بؤسه بخلق فردوس خيالي ، فهو عملية تشبث بالحياة وبحث عن التوازن . لذلك يتلاشى عند العجوز — اللاجيء الفلسطيني الزمان الفيزيائي ، الزمان الفعلي ، ليحل محله زمن نفسي يهدهد وعيا تعيسا وكيانا كسيرا ، لكن استعادة الماضي لا تجمل فقط وجه الحاضر ، لانها تعود من جديد لتظهر عمق المأساة ومدى مرارة هـذا الحاضر ، لذلك فان هـذه الاستعادة تكرس الزمن السلبي أولا لكنها لا تلبث أن تزحزح هـذه السلبية عندما يتخلص الحنين من سلبيته ويسعى الى التحقق .

فهناك اذن استعادة خيالية للماضي وتشبث به يدفع الى الحركة .

لذلك « فالعجوز » أولا تعايش الموت وترتمي الى الماضي :

« تدرع بصخب حيث السنابل ، ... ، حركة تموج وتنحسر ، فاذا على الارض كومة من ذهب ، ... ، ويغني كل منهما أغنية ، ويغنـي كلاهما معا : يا ميجنا ، يا ميجنا .

أنت تعبان يا ابن عمي ، تعال وتمدد قليلا ، عندك بكره عمل كبير ، سيحتاجك الى نهار كامل »(٦) .

لا يتم الحنين لاسترجاع الماضي فعلا ، أي تملك الحاضر ، بسبب قوة الحنين فقط ، بل بسبب التمرد على الظلم ورفضه ، رفض عسف الحاكم، العبد هنا لا يعترف بسيادة السيد ، فهو يرفضه على المستوى الروحي ويبحث عن وسيلة لرفضه ماديا ، فالحاكم يستبيح كل شيء ويصبح الانسان كيسا بلا قيمة أو اعتبار :

« لحظتها أحسست ان شيئا قد وقع ، شيئا ما أقوى منهـا ومن ارادتها . لسوف يمرغها الطين ، ولسوف تغطس طويلا في الوحل ، ولسوف تأكل ثمرة الوحل ، ولسوف تبكي كل الليل »(٧) .

يدفع العسف والشعور به والتعلق في الماضي « العجوز » الى الحركة ، لكن هذه الحركة المشروطة بواقع مهزوم تعبر عن نفسها بأشكال مختلفة تعكس هذا الواقع ، لم تصل « العجوز » على الرغم من حالة الموات الملازمة لها الى الاستسلام تماما ، فقد كان بينها وبين الحياة خيط مستمر ، كانت تراه في البيضة الساخنة المحتضنة حيـاة جديدة ، حياة ستكسر قيودها وتحبو ، كما كان تعلقها أحيانا بالحياة يتجلى وهي تضرب الارض بمعولها كاشارة الى الوجود والبقاء . كان لديها باستمرار أمل بأن رحم الغد سيقذف بالمخلص لذلك تقول « لن أهرب ما دمت على قيد الحياة »(٨) .

فذاك المخلص سوف يصنعه الزمان ، سوف ينبت بفضل المثابرة والصمود :

— واذ ما بقيت أحفر ؟

— الى متى ؟

— الى أن يتفجر الماء(٩) .

لذلك فالتعلق في الارض يعني قهر الشيخوخة ومحاولة توليد ما هو جديد . لكن قهر